اصل اليزيدية وتاريخهم

Les Yézidis dans l' histoire.

— ٤ —

أخلاف عدي

جمود العصور التالية :

لم تقف العصور الاسلامية التالية لعدي بن مسافر في جمودها عند أخلافه وحدهم ، بل نراها — على اختلاف نزعاتها ومذاهبها — قد اكتسبت أوضاعاً خاصة ، واشكالا معروفة من الجمود لم تخرج بها عن التقليد في كل شيء .

ولم يكتفوا بتقليد الرأي ، بل صاروا يقلدون الغير في العمل ؛ فعقمت العصور المذكورة عن ان تلد إلا أفذاذاً قليلين . لم يتمكنوا من ان يحركوا هذا الجماد ، بل الصخرة الصماء .

اشتغلوا بالعجائب ، ونسبوا الخوارق لقديسيهم ، ونقلوها عنهم لينالوا مكانتهم و « بهجة الاسرار » و « جامع كرامات الاولياء » و « القلائد » و « الكواكب الدرية » وغيرها من الكتب مشحونة أمثال ذلك ؛ فنقلت اموراً خارقة عن عدي ، وهي لمن وسم بالعلم والمشيخة ، بحيث لا يدعنا ذلك أن نستغرب ما يقال عن اليزيدية . فاذا كان اولئك لم يدركوا حقيقة طرائق القوم ، فمن الاولى ان لا يدركها أميون ، يقضي محيطهم ، وتدعو بيئتهم قسراً الى ان يلازموا تلك الامية الموافقة ، او المقاربة الامية . ولعلها السبب في تحريم القراءة والكتابة .

ولا عجب ان يدخل الغلو بين ظهرانيهم ؛ وقد دب بين جماعاتنا قبلهم ، أو بصورة مساوقة . ومنشأ ذلك الجمود العام . فلا يوجه اللوم الى صنف دون صنف . اللهم إلا تفاوتاً في الدرجات ، « ظلمات بعضها فوق بعض » . فعلة الجمود وبيلة استولت على الكل فلم يسلم منها قوم أو مذهب ، وهي منشأ الغلو الاخير .

وعلى كل حال ان الجمود في التصوف خاصة ، كان متأخراً عن التفقه ، والكلام ، واللغة . وذلك لان ظهوره كان متأخراً لما شعر الناس بالحاجة اليه ، ثم تلاه ما نال غيره .

أخلاف عدي وامامتهم :

قبل ان يستولي الجمود التام على اهل هذه الطريقة ، خلف عدياً جماعة ، قاموا مقامه ، وتأثروا بمبدإه ؛ وكانوا ممن يصلح للارشاد ، بخلاف ما هم عليه اليوم، فان الامامة صارت اليوم ارثية ، وشملت الولاية الدينية والمدنية . يعتقد القوم في امرائهم الرياسة العامة ، ويعتبرونهم كأئمة . وهذه الرياسة اشبه بالخلافة والامامة عند سائر الفرق الاسلامية . وقد حصل اميرهم سعيد بك ابن علي بك في هذه الايام على تولية اوقاف الشيخ عدي واقترنت بالارادة الملكية المطاعة بتاريخ ١٥ آذار سنة ١٩٣١ الموافق ٦ ذي القعدة سنة ١٣٤٩ (راجع العدد ٩٦٤ بتاريخ ٢ نيسان سنة ١٩٣١ من الوقائع العراقية) ، وذلك بعد منازعة وقعت بينه وبين اسماعيل بك من امرائهم ايضاً . وقد اوضح صاحب تاريخ الموصل الفاضل سليمان الصائغ هذه الرياسة ، ولكنه اكسب الامارة شكلا والرياسة الدينية شكلا آخر ؛ والصحيح انهما في واحد ولكنها على ما يظهر تحويل في بادئ الامر فانحصرت في بيت وهذا نص (١) ما قاله بحروفه :

« يرأس الامة اليزيدية جمعاء ، أمير من شيعتهم ، يسمونه امير الشيخان ويقيم في الشيخان الواقعة في شمال شرقي الموصل ، على مسافة ٤٥ كيلو متراً ، وأهم قرى الشيخان : قرية بيت عنري ، الشهيرة في تاريخ الكلدان ، حيث يقيم اميرهم . ولهذا الامير سلطة مطلقة على اليزيدية . وتحت امرة امراء ثانويون ، يخضعون له ، ويبلغون اوامره الى جميع النواحي ، ورئيسهم الديني الاعلى ، هو الشيخ الاكبر ، ويدعونه « بابا شيخ » وتحت يده جملة من الشيوخ يتلقون اوامره في متعلقات الدين ، ينفذونها في الشعب كل في مركزه وناحيته وللشيخ الاكبر فقط حق التشريع في الامور الدينية كتحديد الصوم والصلوات والتحريم الى غير ذلك (كذا) . ومن يتعد على اوامر الامير الاكبر او الشيخ الاكبر ، يعرض نفسه الى اشد القصاصات ، وهو استباحة بيته واموالهم . وهاتان الرتبتان : الامارة والمشيخة محصورتان في عائلتين ، يتقلدها السلف عن

١) طبع تاريخ الموصل الجزء الاول في المطبعة السلفية عام ١٣٤٢ هـ و١٩٢٣ م

الخلاف (١) » اه

١ ـ ابو البركات صخر بن صخر :

هذا هو ابن اخي عدي بن مسافر . وفي اكثر المواطن يذكر بكنيته إلّا في صحيفة ١١ من البهجة فانه ذكر باسمه صخر . وكذا صاحب القلائد ذكره باسمه وافى جبال هكار ، حيث كان يسكن عمه وتعرف به ، فاوضح له درجة قرابته منه . جاءه من الموطن الذي ولد فيه عدي ، وهو بيت فار ، من ارض بقاع العزيز ، في سفح جبل لبنان (راجع ص ٢١٥ و ٢١٧ من البهجة) .

ولما تحقق منه الصلاح والتقوى ، والمقدرة على الارشاد ، قال : ابو البركات يخلفني (٢١٥ منها) . وهذه الاشارة كانت السبب لانتقال الامارة والامامة معاً الى اولاده وحفدته . ومثل هذه الامور لاتحتاج الى سبب قوي ولا الى نص صريح . والعمدة التأكيد والوثوق من الامر . اما اليوم فالاهلية التي توسمها الشيخ عدي لا تراعى البتة . ولعل هذا هو العامل المهم لضياع طريقة الشيخ بتولي اخلاف اضاعوا طريقته وأثروا في التغيير ، إما لجهل واما لتقوية الخلاف ، حفظاً لاثبات شخصية بارزة .

تمكن هذا وامثاله من تثبيت العقيدة والطريقة وتمكينهما ، فاذعن لهم القوم وبدا لهم صلاحهم على تتالي الايام . وهذا يعد عاملا آخر لاعتبار الوراثة في الولاية وعلى هذا جرى اليزيدية الى الآن .

ما قيل عنه :

هو من اجلاء مشايخ المشرق . ونبلاء العارفين ، وأركان هذا الشأن ، وائمة الدعاة اليه ، واعيان العلماء بسبله علماً وعملا ، وزهداً وتحقيقاً ، صحب

١) ان هذا المؤرخ الفاضل عقد فصلا استطرادياً في اليزيدية في الجزء الاول من كتابه تاريخ الموصل من صحيفة ٢٩٥ الى ٣٠٢ وفيه بعض المباحث المفيدة ، ولكنه في مبحث اصلهم ، وفي كلامه عن ديانتهم وتاريخهم لم يتجاوز اقوال من سبقه ، ممن مضى الكلام عليهم في المقالات السابقة ، فانه تابع القوم في حين انه اقرب الى مقر اليزيدية من سواهم والصق بهم وبمن يعرفهم . ولذا كان يؤمل منه ان يكون عماداً في البحث . وسيأتي الكلام على المباحث الاخرى التي طرقها . فنبدي كلمتنا الاخيرة في موطنها .

عمه وهاجر اليه ، واليه كان ينتمي وخلفه — بعد وفاته — في المشيخة بزاويته في لالش بجبل هكار . وكان عمه يثني عليه ويقدمه . ويعد من ابدال الدهر .

لقي غير واحد من المشايخ ، وانتهت اليه رياسة هذا الامر في وقته ، في تربية المريدين السالكين ، وكشف مشكلات احوالهم ، وتبيين مهمات امورهم وتخرج عليه غير واحد من الصلحاء . » اه (البهجة ص ٢١٥ والقلائد ص ١٠٦ و ١٠٧) .

وزادوا ، انه احد من اظهره الله تعالى الى الوجود ، وصرفه في الكون ، وملكه الاسرار ومكنه من الاحوال . واظهر على يديه الخوارق ، وانطقه بالمغيبات . الى آخر ما هنالك .

ومن ثم لا يلام هؤلاء اليزيدية اذا اعتقدوا اكبر منها ونسبوا التصرفات الاخرى والخوارق الواسعة النطاق

صفته :

قال في البهجة : « كان كامل الآداب ، حسن الاخلاق ، ظريف الشمائل ، ذا سمت وبهاء ، وصمت وحياء ، محباً لاهل الدين ، مكرماً لاهل العلم ، وافر العقل ، كثير الكرم ، شديد التواضع ... » اه

وقد حكى في البهجة حادثة زواجه ، فلا نرى فائدة في ذكرها .

اعتقاده :

وله اقوال في التنزيه والصفات قال :

١ — من رأيته يدعي مع الله حالا أو مقاماً ، وهو يجوز في اعتقاده على الله عزوجل تشبيهاً أو تمثيلا ، أو تحديداً ، فاعلم انه كاذب .

٢ — كما ان الله تعالى لا يجوز في حقه تحديد ، ولا تشبيه ، كذلك صفاته ولو لم يرد الشرع بذلك ، لكان العقل يوجبه بالضرورة وينفي ما سواه .

٣ — كما ان الزيادة على الحق كفر ، كذلك النقص منه ، وكما ان التشبيه جحود ، كذلك التعطيل ، وكما ان الزيادة على معالم السنة بدعة ، كذلك التأويل في صفات الله سبحانه ، إلا بما ورد به النص أو الجأ اليه البرهان .

٤ ــ العروة الوثقى الوقوف عندما جاء من الله تعالى ورسوله (ص) من غير زيادة ولا نقص .

وقد اجمل ذلك بقوله : وما رأيت احداً من المشايخ الذين يقتدي بهم إلّا على هذا السبيل . (البهجة ٢١٥)

كلامه على لسان اهل الحقائق :

للصوفية درر كلمات هي العمدة في السلوك ، والمعول عليها في مناهج الحياة ، وقد يكون القول الواحد صالحاً لان يسلك المرء بموجبه . وقد قصر هؤلاء حياتهم على النظر في الحكمة من طريق العزلة والانقطاع . ولا يعول على سند صحيح وصل الينا عنهم اقوى من الحكم التي نطقوا بها ، فهي نتائج تجاربهم ومجاهداتهم ، وملخص آدابهم ، وصفوة طريقتهم . وكل احد يؤخذ بقوله ويرد إلّا الانبياء (ع) . واليك ايها القارئ اشهر اقوال المترجم على لسان اهل الحقائق :

١ ــ من سكر بكأس المحبة ، لا يصحو إلّا بمشاهدة محبوبه ، فان السكر ليلة صباحه المشاهدة ، كما ان الصدق شجرة ثمرتها المجاهدة .

٢ ــ اصول المحبة في ثلاثة اشياء [كذا في القلائد . وفي البهجة اصول الاصول في ثلاثة] : الوفاء ، والادب ، والمروءة . فالوفاء انفراد القلب بفردانيته والثبات على مشاهدته والمؤانسة بنور ازليته . واما الادب ، فمراعاة الخطرات ، وحفظ الاوقات ، والانقطاع عن المقاطعات . واما المروءة ، فالقيام على الدكر بالصفاء قولا وفعلا ، والسر عن الاغيار ظاهراً وباطناً ، وحفظ الاوقات لرعاية ما هو آت ، واستدراك الاوقات . فاذا وجدت هذه الخصال في العبد ، وجد لذة الوصال . وخاف حرقة البين . وهاج في سره نار الاشتياق .

٣ ــ اذا احكم العبد اساسه في الرضا ، وصل الى درجات المقربين .

٤ ــ براهينه :

أ ــ برهان العابدين زكاء اعمالهم .

ب ــ وبرهان العارفين صفاء احوالهم .

ج ــ « المحبين بقاء انفاسهم .

د — وبرهان العالمين نشر عجائب قدره في اسرارهم .

ه — » المقربين اجابة الاكوان لدعائهم باخبارهم عن مولاهم .

٥ — المحبة : وله، وسكر، وخمود ، وذكر ، واستغراق، وفكر ، وحيرة وذعر فمن ادعى المحبة فبرهانه نضج الفؤاد ، وتقطيع الاكباد ،واعدام الاشباح ، وبذل الارواح ...

٦ — القلب الجزوع ، هلوع ؛ والسر الممنوع فجوع .

أقواله الاخرى :

نكتفي هنا بذكر جوهرة فريدة له قال :

١ — الحق اقوى من ان يقوى بباطل . [راجع . بهجة الاسرار ص٢١٤]

وهذا القول ينبغي ان يسير بموجبه كل صاحب مبدأ ، ويجعله نصب عينيه بخلاف ما نراه من اصحاب النحل ، والمبادئ الاخرى ، وما يتخذونه من الوسائل والدعايات وطرق نشرها ، خصوصاً نسبة الخوارق والكرامات العديدة لهم للتفاخر والمزاحمة . ومن كان همه معرفة حقيقة الرجل من اقواله وآثاره فلا يعدو ذلك وينتظر ما سواه .

معاصروه والآخذون عنه :

أشهر المعاصرين الآخذين عنه :

١ — عمر بن محمد المعدني . — ٢ — الشيخ ابو محمد عبدالله الدمشقي .
٣ — ابو الفتح نصر بن رضوان بن مروان الداراني [وفي البهجة ورد نروان عوض مروان] — ٤ — علي الحميدي الشيباني [وفي القلائد ذكر المعاصر الشيخ نصر الله بن علي الحميدي لا أبوه] — ٥ — ابو البركات بن معدان العراقي .
٦ — الشيخ ابو العشائر . — ٧ — ابو الفضل معالي بن نبهان التميمي الموصلي [البهجة والقلائد] .

وفاته :

لم يعين صاحب البهجة ولا صاحب القلائد تاريخ وفاته . وانما جاء في القلائد (ص١٠٨) انه سكن لالش وبقي الى ان مات بها مسناً ، ودفن عند عمه وقبره بها ظاهر يزار رضي الله عنه . اه

٢ ـ ابو المفاخر عدي بن ابي البركات :

وهذا ايضاً مشهور بالصلاح والتقوى كوالده واخذ عنه . وكان ممن اثنى عليه ابن تيمية . ترجمه صاحب القلائد وافرده بالذكر ونعته بقوله :

« الشيخ الاصيل ... كان من اعيان مشايخ العراق المعتبرين ، صاحب كرامات واحوال ... الى ان يقول : صحب والده ، واخذ عنه ، ولقي غير واحد من مشايخ المشرق (رض) . وانتهت اليه الرياسة في وقته في تربية المريدين بجبل الهكار وما يليه ، وتخرج بصحبته غير واحد .

وكان كريماً ظريفاً ، ذا سمت وحياء . محباً لاهل الدين ، مكرماً لاهل العلم وافر العقل . شديد التواضع ، واجمع العلماء والمشايخ على تبجيله ، واحترامه ، وقصد بالزيارات ، واشتهر ذكره في الآفاق (رض) ولم اقف على تاريخ مولده ، ولا وفاته . »

فيرى من هذا انه نعته بما نعت به والده . فكأنه حذا حذوه ، ولم يزد عليه ، أو أن ما قاله مما ينعت به امثاله (راجع النعوت لباقي المشايخ في القلائد) .

لم نتمكن من العثور على قول له . وهذا هو خاتمة اكابر الرجال من آل عدي واقاربه . واما من جاء بعد هؤلاء فلم يحصل على شهرتهم . ولا نال مكانتهم ولكنهم على كل حال اسسوا الزعامة لكرد تلك الانحاء كما تقدم بحيث لم يستطع ان يزاحمهم غيرهم . وبسبب هذا الاعتماد والوثوق ، رسخت الرياسة في حفدتهم الى يومنا هذا . وغاية ما يقال عن المترجم انه وقف عندما تلقى من اسلافه ، وراعى وصاياهم بقدر ما تمكن عليه ، وقد نقلت عنه بعض الاقوال عام ٦١٨ هـ .

٣ ـ الشيخ حسن بن ابي المفاخر عدي :

ذكره ابن تيمية في وصيته الكبرى (ج ١ ص ٣٠٠) من مجموع رسائله فقال : « وفي زمن الشيخ حسن زادوا اشياء باطلة نظماً ونثراً وغلواً في الشيخ عدي وفي يزيد باشياء مخالفة لما كان عليه الشيخ عدي الكبير ... (الى ان قال) وابتلوا بروافض عادوهم وقتلوا الشيخ حسناً . وحرت فتن لا يحبها الله

ولا رسوله ... » اه

ولعله الى هذه الفتن اشار التاريخ المجهول المنسوب للفوطي قال :

« في هذه السنة (سنة ٦٥٢ هـ) جرت بين اصحاب الشيخ عدي بن مسافر واصحاب بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل محاربة كان سببها ان بدر الدين كان كثير التثقيل على اولاد الشيخ عدي ويكلفهم مالاً على وجه المساعدة فاطلقوا السنتهم فيه فارسل طائفة من عسكره اليهم فقاتلوهم قتالا شديداً فانهزمت الاكراد العدوية وقتل منهم جماعة كثيرة واسروا منهم جماعة فصلب بدر الدين منهم مائة وذبح مائة وامر بتقطيع اعضاء اميرهم وتعليقها على ابواب الموصل وارسل من نبش الشيخ عدياً من ضريحه واحرق عظامه » اه

ومن المستبعد ان يكون هذا الامير هو الشيخ حسن، وان كانت حوادث هذا التاريخ متسلسلة إلّا انه لم يصرح باسم الامير ولان السخاوي قال في تحفة الاحباب موافقاً لما جاء في فوات الوفيات : « وتخلف من بعده اخوه صخر (صحيحها ابن اخيه) وتفرق اولاده (اولاد ابن الاخ) في البلاد واقبل اليهم العباد فنزل منهم بالموصل الشيخ شمس الدين الحسن بن ابي المفاخر عدي بن ابي البركات ... الملقب بتاج العارفين ابي محمد شيخ الاكراد ... كان من رجال العالم دهاءاً ورأياً وحزماً وله فضل وادب (وزاد في الفوات : وشعر وتصانيف في التصوف) وله اتباع ومريدون يبالغون فيه . توفي شهيداً في سنة ٦٤٤ هـ (قال في الفوات : خاف منه بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل فقبض عليه وحبسه ثم خنقه بوتر بقلعة الموصل خوفاً من الاكراد لانهم يشنون الغارات على بلاده فخشي ان يأمرهم بأدنى اشارة فيخربون بلاد الموصل . وفي الاكراد طوائف الى الآن يعتقدون ان الشيخ لابد ان يرجع ... وينتظرون خروجه . وما يعتقدون انه قتل . وكانت قتلته سنة ٦٤٤ هـ) وله من العمر ٥٣ سنة ...

وزاد احمد باشا تيمور نقلا عن ذخائر القصر في تراجم نبلاء العصر (ص ٢٠) انه اختلى ست سنوات صنف فيها كتاب الجلوة لارباب الخلوة وانشد من الشعر

وصرت فرداً بلا ثان أقوم به واصبح الكل والاكوان تفخر بي
وكل معنـاي معناها وصورتها كصورتي وهي تدعى ابنتي وابي

وفيها ما يدل على الروح الصوفية وطريقة وحدة الوجود . وذكر له صاحب الفوات أبياتاً اخرى...

ولما كان الغلو بدأ في زمن المترجم فسندقق النظر في هذا الغلو وتطوره ، ونأتي على بقية الذرية قدر ما وصل الينا اجتهادنا .

المحامي عباس العزاوي

آداب المائدة

Le Savoir - vivre à table.

في المجتمع عادات ، يتحتم علينا مراعاتها ، وكثيراً ما تكون هذه العادات مخالفة لجماحنا ، ونود ان نتخلص منها ، إلّا انه لابد لنا من ان نذعن لها ، شئنا ام ابينا ، إذا اردنا ان نكون من ابناء الادب . ولو لم يكن ثم قواعد لآداب الاجتماع ، لنتج من ذلك تراخ لايبطىء من ان يجر وراءه انحطاطاً في التفوق وتسفلا في حسن السلوك ، وتدن في التهيب ، واذا كان هناك ما يزعج اذواقنا في بعض الاحيان ، فالترفع عن خسائس الامور ، يكون العوض الذي لايقدر ولا يقابل بشيء ؛ ومن بعد ان مهدنا الموضوع بهذه الكلمة ، نحصر كلامنا في آداب الطعام ، وكيفية السلوك بموجبها .

يحسن بالانسان ، ان يجري في أكله ، كما لو كان مع رفاق ، وان كان يأكل في بيته ، وفي دخيلته ؛ لان العادة الرديئة اذا تأصلت في النفس ، يصعب على صاحبها ان يتخلص منها . ومن منا لم يشاهد حيرة رجل من اهل البادية ، اذا دعي الى وليمة ؟ فانه يشعر باضطراب في نفسه ، وكأنه قد قيد بقيد ؛ اذ يعلم كل العلم ان هناك عيوناً تراقبه وتترصده ، ولا يود إلّا شيئاً واحداً ، هو ان ينتهي عذابه ، مع ان امر الاكل هين ؛ لكن آدابه تتطلب اصولا يجب مراعاتها إذ من الضروري ان يتصرف الآكل احسن التصرف في الملعقة ، والشوكة ،